

الطفل بين التلفزيون والقراءة

مقاربة إبستمولوجية

د. بوملي نصير

جامعة الأمير محمد القادر - قسنطينة

يتضح من خلال عنوان هذه الدراسة أن هناك إشكالية مزدوجة : هي في علاقة الطفل بالتلفزيون من جهة وعلاقته بالقراءة من جهة أخرى... بمعنى آخر هل ينجذب الطفل نحو برامج التلفزيون أكثر من القراءة (كل أنواع القراءة⁽¹⁾) ، أم أن القراءة تستقطب اهتمام الأطفال أكثر من البرامج التي تعرض عليهم في التلفزيون ؟

هذه الإشكالية - في الحقيقة - كانت قد شكلت حاجساً كبيراً لدى الباحثين منذ الستينيات من القرن الفارط، عندما ظهر التلفزيون إلى الوجود وأثيرت مسألة التكامل و/أو التنافر بين الوسائل الإعلامية. وقد أخذت مسألة المواجهة بين المطبوع (المكتوب) والمرئي (الصورة) أو بين "البارد" و"الساخن" طابعا خاصا عندما قدّم ماكلوهان (Mac-Luhan) بعض الأطروحات عن الأثر

(1) نشير إلى أن القراءة أنواع فهناك من الأطفال من يقرأ للمعرفة والإطلاع وهؤلاء هم قراء المجالات. وهناك أيضا من يقرأ للذة القراءة. يتحدث المفكر الفرنسي رولان بارت (Roland Barth) عن نوعين من التعامل مع النص في هذا المجال. قد يجد القارئ اللذة والمتعة فيما يقرأه وهذا هو النوع الأول من التعامل مع النص. أما النوع الثاني وهو أن يجد القارئ في القراءة وسيلة يبتعد فيها عن الواقع الذي يعيش فيه ليتعرف على عالم المكنونات. نحن في هذه المداخللة لم نقيّد مفهوم القراءة ولم نحدّد نوعا لها، وإنما الحديث هنا هو عن القراءة العامة لدى الأطفال.

الذي يمكن أن يحدثه ظهور التلفزيون على أنماط التفكير والسلوك لدى جيل هذه الوسائل من الأطفال خاصة⁽¹⁾.

يرى ماكلوهان أن كل وسيلة إعلامية تظهر إلى الوجود قد تحدث ارتباكا في محيطنا النفسي وتعرض علينا نمطا خاصا من التصور والتفكير. كما اعتبر هذا الباحث، أن اللغة المكتوبة، التي أصبحت جماهيرية بفعل آلة الطباعة، كانت الحزام الذي تنتقل عبره الثقافة من جيل لآخر. وكانت المعرفة والأفكار تعالج بصفة أحادية. واكتسب إنسان عالم المكتوب عوائد تقوم على الجزئية والمرحلية في التصور والتفكير. وقد أحدثت الوسائل الإلكترونية إرتباكا في هذه العوائد، إذ ألما أدخلت الصورة والصوت (الإذاعة والتلفزيون) وأعادت نمطا آخر من التصور والتفكير يقوم على الامتثالية والجمود... إلخ⁽²⁾.

يقول منظورو الإعلام أن التلفزيون أصبح المحيط الكامل الذي يقدم الصور التي يمتلكها الجمهور عما حوله. وتظهر الإحصائيات مثلا أن الفرد في أمريكا يكون قد شاهد 2000 ساعة مما يبثه التلفزيون عند سن 18 سنة ويكون الطفل قد جلس أمام التلفزيون 3000 يوم (أي تسع سنوات) عند سن 60 سنة. وربما الأمر قد يكون أكثر في مجتمعنا... من هذا المنطلق نقول أن التلفزيون ملازم وأصبح يشكل مصدر جل ما يملكه الإنسان المعاصر في العالم الذي حوله.

(1) إن الصراع بين الملفوظ والمكتوب أو بين البارد والساحن كما يسميه ماكلوهان، لا ينبغي أن يرتبط فقط بما جاء في مؤلفات ماكلوهان. لاشك أن فيكتور هيجو في كتابه (Notre Dame de Paris) قد سبق ماكلوهان في هذا الطرح. حين قال (إن هذه ستقبل هذه) مشيرا إلى أن حروف الرصاص ستسحق الصخور الكنسية، أي أن التعليم سيقضي على السلطة الروحية التي كانت بحوزة الكنيسة.

(2) انظر على سبيل المثال الدراسة التي أعدها عزى عبد الرحمان، عن الصحافة الإلكترونية وأزمة الصحافة المكتوبة، عالم الاتصال، سلسلة دراسات إعلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 375-378.

1 - الصورة وحاسي السمع والبصر

إن الدراسة الإستيمولوجية لطغيان الصورة التلفزيونية على عقول الأفراد تستدعي التعمق أكثر في هذه المسألة.

وببساطة نقول، لأن التلفزيون، في ظل حضارة الصورة، يخاطب القلب أكثر مما يخاطب العقل. فهو أقرب إلى فهم المشاهد وقلبه... إن البرنامج التلفزيوني يخاطب العين والقلب والأذن قبل أن يخاطب العقل. وهو يخاطب لغة الحواس "النظر والسمع" قبل أن يلج إلى الفكر. لذلك نجد أن الإقبال على التلفزيون يأتي من هذه السهولة في دخول عالمه.

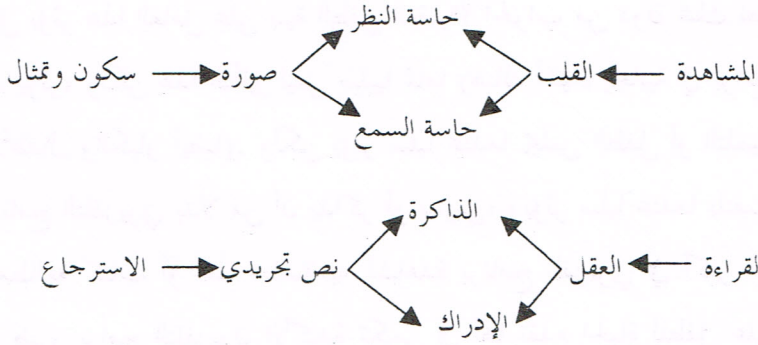
إن التلفزيون يقدم للطفل الحياة على أنها سهلة جدا، وهو يعود الجيل الناشئ السهولة في الوصول إلى المعرفة، أعني بذلك الاكتفاء بالمشاهدة والتلقي بدلا من الغوض بعيدا في المجرد.

إن وسائل الإعلام المعاصرة وبالأخص التلفزيون وسائل تخاطب الأحاسيس وتستعمل الصور والأضواء (التي بطبيعتها تزول فورا بعد إستعمالها). أما القراءة، فإنها تستعمل الرموز المكتوبة وهي رموز تجريدية تتطلب من القارئ شيئا من الجهد والمشاركة. يقول المفكر الإيطالي "أمبرتو إيكو" القراءة عملية تتطلب من القارئ جهدا كبيرا وتعاوننا متواصلًا للملئ الفراغات ولجلب التذكريات الموجودة في النص⁽¹⁾.

وأما على صعيد التكوين الجسدي، تتطلب القراءة من الفرد أن ينسق بين العين والعقل وبين الأذن الداخلية والصوت الداخلي "القراءة الصامتة" كما تتطلب القراءة استعمال الذاكرة التي تقترن بالرموز المكتوبة في النص.

(1) انظر على سبيل المثال الدراسة التي أعدها عزري عبد الرحمان، عن الصحافة الإلكترونية وأزمة الصحافة المكتوبة، عالم الاتصال، سلسلة دراسات إعلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992، ص 375-378.

ويمكن توضيح هذه المسألة من خلال المخطط الآتي:



يقول في هذا الإطار الكاتب الفرنسي الشهير روبرت اسكاربيت

(Robert Escarpite) :

"الكلمة المنطوقة تضيع أما الكتابة فتبقى، وقد مكنت الكتابة للكلمة من أن تقهر المكان ومكنها الكتاب من أن يقهر الزمان". وهو بهذا القول يريد إعادة الاعتبار لعالم القراءة بعد أن أصبح يتلاشى تدريجيا فاسحا المجال لعالم المشاهدة والذي يتجسد من خلال المشاهدة أو الصورة.

كثيرا ما نسمع اليوم أن التلفزيون (وانطلاقا من هذه الخصائص التي ذكرناها) هو السبب في تدني مستوى تعليم الأطفال في بلادنا عما كان عليه منذ عشرين سنة أو أكثر. والحقيقة أن هذا الوضع لا يخص الطفل أو الإنسان المسلم وحده. إنما ظاهرة معروفة في أوروبا وأمريكا أيضا. لقد سئل ذات يوم "هاملت واغتر" وهو أحد رواد المدرسة الظاهرية في علم الاجتماع عن السبب الذي جعله يقرأ معظم النصوص المقدسة في عصره (الأربعينيات). فقال ببساطة لأن عائلته لم تكن تمتلك جهاز تلفزيون. وهو يأسف على واقع أن جيل أحفاده فقد الكثير من عادات القراءة⁽¹⁾، وأصبح مرتبطا بالتلفزيون والإعلام السمعي - بصري.

(1) يقصد بعادات القراءة : الحجم الذي كان يخصصه الفرد للقراءة والمطالعة في اليوم وهو الذي يسمى إحصائيا بالكثافة اتجاه القراءة ويقابلها الكثافة اتجاه المشاهدة والاستماع.

إذا كان من الناحية الإستمولوجية أن الطفل يرتبط بالتلفزيون أكثر من الكتاب. فهل يؤثر هذا العامل على بنية الطفل العقلية؟ الجواب من دون شك نعم أن التلفزيون يؤثر، ولكن هذا التأثير ليس سلبيا تماما (هناك أشياء إيجابية في برامج التلفزيون للأطفال والكبار أيضا). ولكن يؤثر سلبا عندما يجلس الطفل أو التلميذ لمشاهدة البرنامج التلفزيوني بدلا من أن يذاكر أو يدرس، ويؤثر سلبا عندما يلتفت الطفل عن مطالعة كتاب أو مجلة خاصة به لمشاهدة برنامج تلفزيوني في أكثر من سته. ولكن ضرر برامج التلفزيون الأكيدة تكمن في أنها تقدم الحياة للطفل على أنها حياة مليئة بالعنف والتسلط والصراعات وسفك الدماء إلخ.. (و هي ميزة الكثير من الأفلام التي تشاهد عبر التلفزيون).

فقد أكدت الدراسات الميدانية، أن التلفزيون يتمتع - من حيث المضمون - بمصدقية عالية لدى الأطفال فيما يقدم لهم من محتوى. وقد تتحول مواقف بعض المشاهد إلى أفعال حقيقية. ونحن نتذكر جميعا قصة ذلك الطفل الجزائري الذي أصاب شقيقه في بصره بواسطة سهم خشبي فلما سئل الطفل عن هذا الفعل الشنيع قال : شاهدت ذلك في مسلسل الشنفرة...

2 - محدودية دور الأولياء

إن ارتفاع حجم المشاهدة التلفزيونية في اليوم لدى الطفل وتقلص حجم القراءة لديه في اليوم وبشكل كبير جدا يعود في اعتقادي إلى ضعف ومحدودية دور الأب والأم والمدرسة في توجيه الأطفال. هل يناقش المعلم في المدرسة محتوى بعض البرامج التلفزيونية مع الأطفال وهل يقدم لهم النصائح والإرشادات؟ لا أعتقد. بل يلاحظ، أيضا، عدم اكتراث الجهات المعنية بهذا الموضوع سواء على مستوى جهاز التلفزيون أو الوزارات المعنية وحتى جمعيات أولياء التلاميذ عندنا لا تدري خطورة موضوع استقطاب التلفزيون للطفل وابتعاده عن عالم القراءة والمطالعة.

إن طغيان الصورة التلفزيونية على حياتنا وحياة أطفالنا يجعلنا في الأخير نتساءل عن مستقبل القراءة في المدين القريب والمتوسط على الأقل. الواقع أن القراءة - وإن تقلصت كثيرا في ظل المشاهدة المرتفعة للتلفزيون - فهي لن تموت.. إنها ستتحول، كما تحولت بعد اكتشاف الطباعة في أواخر القرن الخامس عشر. فنحن نشهد اليوم نوعا "من الزواج" والترابط الوثيق بين الصورة والكلمة بين التلفزيون والكتاب والحاسوب. إذ أن هذه الآلة نوع من التلفزيون الذي يقدم نصوصا نستطيع قراءتها. واليوم تنتشر بسرعة مذهلة الموسوعات المطبوعة على أسطوانات رقمية أو على شبكة الإنترنت وكلها وسائل لا يمكن الاطلاع عليها إلا عن طريق قراءة النصوص في الكمبيوتر وعلى شاشته.